العرب فى الناحية الشرقية والثالث (عرايشية العبيد) وهو حى فقير، تسكنه الطبقات الفقيرة العاملة الكادحة فى هذه المدينة الزاخرة بالناس من جميع الألوان والأشكال، والتى تفيض بالذهب فى كل ناحية من نواحيها، ومع هذا لايكاد يسمع الفقير رنين هذا الذهب ليجد منه السلوى والعزاء..!

هل كتب على المصريين أن يعيشوا دائماً على هامش الحياة دون أن يفهموا شيئاً من حقيقتها وإن طال بهم العمر وامتد بهم الأجل!! إن الفقر ليس علة العلل كما يدعى بعض الناس، وإنما هو الجهل الفاضح بأسرار الكون، وحقيقة الوجود، وإلا فإذا تكلفنا النزهة اليومية ساعة كل يوم ومنا أبناؤنا تتمتع فيها بالنسيم والهواء، والخضرة والماء، والجمال والصفاء!!

عبد الحفيظ أبو السعود
المدرس بمدرسة البنات الثانوية الأميرية بالإسماعيلية

فى شعر عائشة التيمورية

١٨٤٠ — ١٩٠٢

للأستاذ محمد سيد كيلانى

بقية ما نشر فى العدد الماضى

هذه الأبيات التى سردناها من قصيدتها فى رثاء ابنتها هى أروع ما فى القصيدة. وهى تصور شعوراً داخلياً لحالة فتاة قد أيست من شفائها وأيقنت بهلاكها، فهى تودع أمها الوداع الأخير وترجو أن يترفق بها اللحاد حين يوسدها الثرى ويهيل عليها التراب. وتسأل أمها أن تصون جهاز عرسها تذكاراً لها. واسمع إلى أمها حين تجيب ابنتها:

فأجبتها والدمع يحبس منطقى ... والدهر من بعد الجوار يجور
بنتاه يا كبدى ولوعة مهجتى ... قد زال صفو شأنه التكدير
لا توصى ثكلى أذاب وتينها ... حزن عليك وحسرة وزفير

هكذا ردت عائشة على بنتها. وهو رد ضعيف، وكان ينبغى أن يكون أقوى من ذلك بكثير والمعانى فى هذه الأبيات تافهة. ثم تأخذ قيمة القصيدة بعد ذلك فى الانحدار، ويختفى الشعور الداخلى بيتاً بعد بيت حتى ينعدم تماماً وتنقلب القصيدة إلى نوع من النظم الذى لا رائحة فيه للشعر. وهذا دليل على ضعف الشاعرة وضيق أفقها. ولو أنها وهبت حظاً من الشاعرية لاستوحت من المقام جملة قصائد مبكية لا قصيدة واحدة، وبخاصة أن بنتها ماتت وهى فى فجر شبابها. وقد قيل إنها انقطعت عن قول الشعر بعد وفاة بنتها هذه لمدة سبعة أعوام

ولعائشة قصيدة رثت بها والدها ومطلعها:

عز العزاء على بنى الغبراء ... لما توارى النجم بالظلماء

وقد ذكرت فى هذه القصيدة مجئ الطبيب إلى والدها، ثم أنطقت أباها بعدة أبيات مؤثرة. ثم شرعت بعد ذلك تندب وتنوح فقالت:

يا حسرة ابنته إذا نظرت لها ... عمانه عين من البأساء
قالت وحق سنا أبوتك التى ... كانت ضياء الأمن للأبناء
مذ ما فقدتك والحشا متسعر ... والجسم منتحل من الضراء
يا كنز آمالى وذخر مطالبى ... وسعود إقبالى وعين سنائى
يا طب آلامى ومرهم قرحتى ... وغذاء روحى بل ونهر فنائى
أبتاه قد جرعتنى كأس النوى ... يامر جرعته على أحشائى
أبتاه قد حش الفراق حشاشتى ... هل يرتضى القلب الشفوق جفائى

فإذا قرأت هذه الأبيات شعرت بأن امرأة تقف أمامك وقد تدفقت منها الدموع. وهى تتحسر وتتوجع وتئن وتتألم لما أصابها من خطب وحل بها من كرب

ورثت شقيقتها بقصيدة مطلعها:

يا من أتى للقبر يقرأ طرسه ... مهلا فليس كتابه بمداد

وقد ذكرت كذلك فى هذه القصيدة عيادة الطبيب لأختها ونظمت على لسان تلك الأخت أبياتاً مؤثرة إلى حد بعيد قالت:

جاء الطبيب يجس نبض ذراعها ... فرأى التأثر ليس كالمعتاد
فتنفس الصعداء مرات وقد ... أعيى وقال اليوم ضل رشادى
فتنهدت جزعاً، وقالت: سيدى ... أأموت قبل الترب والأنداد
وأسير من دون الأنام وكم أرى ... للدهر قبل الموت من رواد

ثم انتقلت بعد هذا إلى تصوير شعورها الفياض بالحزن على ما أصابها من موت أختها

والملاحظ فى رثائها لبنتها ووالدها وشقيقتها أنه تضمن صورة واحدة، تلك هى مجئ الطبيب ويأسه من شفاء المريض وعجزه من علاجه. ثم تأتى بعد ذلك محاورة بين المريض والطبيب أو بين المريض والشاعرة كما حدث لها مع بنتها. ونرى فى هذه

المحاورة شعراً رائعاً يترجم عن إحساس عميق ويعرب عن شعور متقد بين الجوانح . وهذا شيء لا نراه عند غيرها من الشعراء . فهي قد انفردت به وتميزت عن سواها ممن يقولون الشعر . وذلك راجع إلى طبيعتها الأنثوية ، فإن المرأة هي التي تشرف على علاج المريض وتسهر الليالي في خدمته وتسمع شكواه وأنينه فكان لها من طبيعتها هذه ما جعلها تأتي بهذه الصورة الجديدة . ولم نر شاعراً في عصرها وفق إلى مثل هذه الصورة غير صالح مجدي في رثائه لزوجته ، وذلك لأنه كان يعالجها بنفسه بالبخور والتمائم والرقى فلما ماتت صور هذا كله في رثائه لها

ولعائشة قصيدة مطلعها :

بيد العفاف أصون عز حجابي ... وبعصمتي أسمو على أترابي

وهذه القصيدة جديدة في موضوعها ، فريدة في بابها . تأمل في قولها :

جعلت مرآتي جبين دفاتري ... وجعلت من نقش المداد خضابي
كم زخرفت وجنات طرسي أنملي ... بعذار خط أو إهاب شبابي
منطقات ربات البها بمناطق ... يغبطنها في حضرتي وغيابي
وحللت من نادي الشعور ذوائباً ... عرفت شعائرها ذوو الأنساب
ما ضرني أدبي وحسن تعلمي ... إلا بكوني زهرة الألباب
ما ساءني خدري وعقد عصابتي ... وطراز ثوبي واعتزاز رحابي
ما عاقني خجلي عن العليا ولا ... سدل الخمار بلمتي ونقابي

أنت تقرأ هذه الأبيات فتشعر بأنك تقف أمام امرأة . وليست هذه المرأة الخنساء ، ولا ليلى الأخيلية ، ولا غيرهما من شاعرات العرب ، وإنما هي امرأة تعيش في العصر الحديث . اتخذت من الدفتر مرآة ، ومن المداد خضاباً . ولو كان هذا المداد أسود لأضحت الصورة كريهة قبيحة . فلعلها أرادت المداد الأحمر فإن صح هذا فالصورة مقبولة . وهي تقول بعد ذلك إن كونها امرأة لم يمنعها أن تنزل إلى ميدان الأدب جنباً إلى جنب مع الرجال . وهي في دفاعها عن هذا الرأي تعبر عن شعور صادق وتنطق عن ثقة واطمئنان إلى نفسها ، وهذه الصيحة بداية للمطالبة بحقوق المرأة ؛ ومساواتها بالرجل وتحريرها من الرق والإسار ؛ وفي الأبيات صورة لما كانت عليه المرأة في ذلك الوقت وهذه الصورة تستوحيها من ذكر الخدر والعصابة والثوب الطارز والخمار ، فلو أن الشاعرة عاشت معنا في هذه الأيام لما ذكرت شيئاً من ذلك ، ولما أتت بهذه الصورة التي لا وجود لها بين الطبقات الغنية

* * *

ومن شعرها المتكلف قصيدة في ذكر الخمر جاء فيها :

لاح الصبوح وبهجة الأوقات ... فاشرب وعاط الصب بالكاسات

ومنها :

ودع الوشاة وما تقول عواذلي ... فالعين عيني والصفات صفاتي
فأنا الأسير بظل روض كرومها ... ولو ان في عنقي شهي حياتي

وليس هذا مما تقوله النساء ، ولكن عائشة تريد أن تنظم الشعر ولا تجد أمامها ميداناً للقول ، فماذا تصنع ؟ نظمت في ذكر الخمر كما نظمت في الغزل من قبل

وليس لها في باب المدح سوى قصيدة واحدة هنأت بها الخديو توفيقاً عقيب القضاء على الحركة العرابية

* * *

وكانت الشاعرة تستوحي من أنوثتها كثيراً من الصور ، ومثال ذلك قولها :

ولكني أرى في الصبر طبي ... ومكحلة الجلا حسن امتثال

وقولها :

فدعني يا خلي والخل نخلو ... ونكحل بالثنا جفن الأماني

وقولها :

مرآته طمست وأصدأ وجهها ... من بعد ما سعدت بطول جلاء
ولطالما اكتحلت عيون أولي النهى ... من غدره بمصائب وبلاء

فأنت ترى أن الشاعرة تكثر من ذكر الكحل والمكحلة والمرآة ، وهذه كلها من مستلزمات المرأة

* * *

وقد استخدمت التورية باسم عائشة في عدة مواضع . فمن ذلك قولها :

إن قيل عائشة أقول لقد فني ... عيشي وصبري والإله خبير

وقولها :

ولي القلب في سعير تحرق ... ما دمت عائشة ليوم فنائي

محمد سيد كيلاني